قِصَّةُ بِنَاءِ أُمَّةٍ

من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين

كتبه

د. ياسر برهامي



دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/١٦٠٤٢

توزيع

دار الخلفاء الراشدين
الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٠٥٠١٣١٥١-٠١٢٠١٥٢٩٠٨

دار الفتح الإسلامي
الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٢٧٧١٠٦٠-٠١٠٦٧١٤٧٦٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يُضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ - ٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار .

فإن الله ﷻ قد جعل في قصص الأولين عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه ، وقصَّ ﷻ على النبي ﷺ وعلى أمته ما ثَبَّت به أفئدة المؤمنين ، خصوصًا عندما تشتد بهم الأحوال ويحيط بهم الأعداء .

فالمؤمنون أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام إلى آخر الزمان ، يعبدون الله ﷻ وحده لا شريك له ، ويواجهون الكفر والشرك دائمًا ، لذلك فعليهم أن يلتمسوا العبرة من كل حلقة من حلقات هذا الصراع على مدار التاريخ .

والقصة التي نتناولها قصة نبي كريم - بل نبيين كريمين - من أنبياء الله ﷻ ، وإن كان المشهور منهما داود - عليه وعلى نبينا السلام - ، والنبي الآخر ذكر بوصفه ولم يذكر باسمه .

من مرحلة الاستضعاف إلى مرحلة التمكين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ

فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

[البقرة: ٢٤٦ - ٢٥٢] .

بين يدي القصة :

في زمن موسى ﷺ ، دُعي بنو إسرائيل إلى قتال الجبارين من أهل فلسطين ـ وهم قوم أفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله ـ وأخبرهم موسى ﷺ أن الأرض المقدسة قد كتبت لهم ، وأنهم إن دخلوا عليهم غلبوهم بتوفيق الله ، فما كان من

هؤلاء ـ الذين شهدوا مع موسى أعظم الآيات ـ إلا أن قالوا تلك المقالة الفظيعة :

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾

[المائدة : ٢٤] .

فكان أن دعا موسى عليهم بالتفرقة بينه وبينهم ، واستجاب الله له ، وحرم على بني إسرائيل الأرض المقدسة أربعين سنة مات خلالها موسى وهارون عليهما السلام ، ثم خرج يُوشع بن نون بعد أربعين سنة من التِّيه بجيل جديد من بني إسرائيل ، يلتزم بطاعة الله ، ويؤمن به ، فجاهد الكفرة من أهل فلسطين ، ونصره الله ﷻ عليهم ، وحبس الشمس من أجل أن يدخلوا المدينة المقدسة قبل غروب شمس يوم الجمعة ، وهذا من آيات الله ﷻ.

وتكونت مملكة على التوحيد والإسلام ، وهذا في حدِّ ذاته من أهم المواضع التي نستفيد منها ، فعداؤنا مع اليهود ومع بني إسرائيل لم يكن قط لنسبهم ، أو لأجل قوميتهم ووطنهم ، أو نزاعًا على قطعة أرض ، بل نحن أولياؤهم حين

وحدوا الله ﷻ ، وأعداؤهم حين كفروا بالله ﷻ ، وكذبوا المرسلين .

المقصود :

أنهم انحرفوا عن منهج الله ، وظهرت فيهم البدع التي هي بريد الكفر(١) ، ثم ظهر الشرك بالله ﷻ ، والسحر وغير ذلك مما دمرهم الله به ، فسلط عليهم عدوًا من غيرهم أخذ بلادهم ، وشردهم ، وقتل رجالهم ، وسبى نساءهم ، ففيما يذكر أهل السير : « أن الله سلط عليهم بَخْتَنَصَّر وهو حاكم ظالم كافر تَبَّرَ ما علا تتبيرا »

---

(١) الدليل على أن البدع بريد الكفر ما ثبت في الصحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣] قال : هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحي الشيطان إلى قومهم : أن اعمدوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها فانصبوا فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ، ففعلوا ولم تعبد ، حتى إذا هلك هؤلاء ونسي العلم عبدت .

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب : فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر . أهـ .

انظر باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين .

- أي دمر ما علا تدميرًا.

فأَسَرَ منهم طائفة ، وأخرج الباقين أذلاء ضعفاء .

ذكر الله ﷻ كيف استخرج هؤلاء من الظلمات إلى النور ، ومن هذا الاستضعاف إلى التمكين وإعادة الملك ثانية لبني إسرائيل الموحدين المؤمنين .

بداية الصحوة

قال الله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾

نلحظ من هذا أن الله ﷻ أراد بهذه الأمة خيرًا ، فألهم القادة ومن لهم الكلمة المسموعة أن يسيروا في الطريق المستقيم ، وأن يسلكوا السنة الشرعية والكونية معًا ، فإنهم ﴿ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ﴾ ، وهذا يدلنا على وجود الأنبياء وبالتالي وجود الدعوة إلى الله ﷻ التي أثمرت ثمرتها في أن كان مسموعو الكلمة منهم يريدون أن يجاهدوا في سبيل الله .

هكذا ظهر التوحيد ـ مرةً أخرى ـ في طائفة مؤمنة من بني إسرائيل .

وهذه فائدة أولى ـ أن عاقبة الشرك التدمير ، وعاقبة البدع والضلال ضياع ما بأيدينا .

وأن طاعة الله ﷻ هي طريق العزة والمجد ، وبها تسترجع الحرمات المغتصبة ، والبلاد المسلوبة .

وأنت تلحظ مثل هذا في تاريخ المسلمين ، تلحظ أن

انتشار البدع وتطوّرها إلى أن تصير شركًا يكون دائمًا مقدمة لتسلط الأعداء على المسلمين أعظم تسلط .

انظر كيف أخذ الصليبيون بيت المقدس ، أخذوه عندما كان العبيديون ـ الذين اشتهروا بالفاطميين ـ متسلطين على بلاد مصر والشام والحجاز .

وعندما زالت هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله بعد نحو من ثلاثة قرون من نشأتها عادت السنة إلى الظهور ، فمكّن الله عز وجل المسلمين من النصر في حطين واستعادوا بيت المقدس .

وفي العصر الحديث عندما انتشرت البدع المكفرة ـ والعياذ بالله ـ وعادت عبادة القبور مرة أخرى في أواخر عهد الدولة العثمانية وتركوا الجهاد ـ الذي قامت عليه دولتهم حتى فتحوا القسطنطينية الذي استعصت على المسلمين أكثر من ثمانية قرون ـ وابتدعوا وبدلوا ، بل حاربوا دعوة التوحيد التي قام بها الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، حاربوها حربًا عنيفة شديدة حتى دمروا الدولة الأولى التي أقامها الشيخ وأتباعه ،

ولما انتشرت بدع العلمانية والقومية والاشتراكية أخذ الكفار من المسلمين كل البلاد إلا جزيرة العرب باسم « الاستعمار » ، وما هو باستعمار ولكنه في الحقيقة استخراب خرب الدين والدنيا ولا حول ولا قوة إلا بالله ، إلا ما شاء الله ﷻ من بقاء الطائفة المؤمنة .

وعندما زاد الأمر سوءًا بانتشار المناهج الأرضية من العلمانية والاشتراكية أخذ اليهود بيت المقدس ، ولن يعود للمسلمين إلا كما عاد إلى المسلمين من بني إسرائيل عندما عادت دعوة التوحيد وظهرت فيهم إرادة التخلص من الذنوب والمعاصي والبدع والضلال .

فأول شيء ألهمهم الله ﷻ إياه أن ذهبوا إلى نبيهم الذي بدأ الدعوة ، وكان الأنبياء من بني إسرائيل يتبع بعضهم بعضًا يقودون الأمة [1] حتى في فترات بُعدها عن منهج الله ﷻ .

---

(١) قال في فيض القدير : سئل الحافظ العراقي عما اشتهر على الألسنه من حديث : « علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل » فقال : لا أصل له ولا إسناد بهذا اللفظ ويغني عنه « العلماء ورثة الأنبياء » وهو حديث صحيح .

ونحن وإن كان نبينا هو خاتم الأنبياء ﷺ إلا أن الخير الذي جاء به لا ينقطع – بحمد الله ﷻ – ولا تزال طائفة من أمته ﷺ على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى تقوم الساعة [1].

والعلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر [2].

---

(١) أصله حديث « لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ الله، وَهُمْ كَذَلِكَ » متفق عليه.

(٢) « إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ » جزء من حديث رواه أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٣٣).

منهج صحيح في التغيير

فانظر أخي المسلم إلى الترتيب الذي وقع :

بدأت الدعوة إلى الله ﷻ على يد الأنبياء ، ثم استجاب أهل السمع والطاعة فيهم - الملأ - ثم طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكًا قبل أن يبدؤوا الجهاد في سبيل الله.

فهذا الترتيب إلهام من الله ﷻ ، فإنه لا يمكن أن يكون جهاد صحيح معتبر بدون إمارة وقيادة وملك ، ومخالفة هذا وهْم كبير يطرأ في أذهان البعض ، لأن الجهاد لا يكون بآحاد من الناس وإنما يكون بطائفة مؤمنة قوية .

وهذا الأمر الذي فعلوه من أنهم ذهبوا إلى نبيهم الذي هو مصدر العلم(١) هذا أيضًا من توفيق الله ﷻ وهذا هو الواجب على المسلمين اليوم ، أن يرجعوا إلى أهل العلم منهم حتى

---

(١) وهكذا أمرنا نحن المسلمين بأن نرد الأمر إلى العلماء ، قال الله تعالى : ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : ٤٣] ، [الأنبياء ٧] ، وقال أيضًا ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] .

يقوم ملكُهم وسلطانهم، وتوجد طائفة ملتزمة بقيادة يرشحها أهل العلم - وهم الذين أعدوها -، وعند ذلك يصلح الأمر ويمكنهم أن يجاهدوا في سبيل الله .

راية واضحة

قال الله تعالى : ﴿ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] ، نلحظ هنا إخلاصهم حيث قالوا : ﴿ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ وهذه ثمرة من ثمار الدعوة[2] ، ومن ثمار استجابتهم للحق

---

(١) ليس فيه دليل للشيعه الإمامية أن الإمامة إنما تكون بالوحي ، بل الواجب أن نرد الأمر إلى أهل الحل والعقد ، وقد صرح النبي ﷺ أن الإمامة ليست بالوحي ، ففي مسند الإمام أحمد من حديث علي بن أبي طالب ﷺ قال : قيل يا رسول الله : من يؤمَّر بعدك ؟ قال : « **أن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينًا زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة ، وإن تؤمروا عمر تجدوه قويًا أمينًا لا يخاف في الله لومة لائم ، وإن تؤمروا عليًا ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هاديًا مهديًا يأخذ بكم الطريق المستقيم** » وهذا الحديث صحح الشيخ أحمد شاكر إسناده (ج٢ رواية رقم ٨٥٩) .

(٢) وفيه دليل على منهج الأنبياء أجمعين من البدء بالدعوة إلى التوحيد فإن الدعوة إلى التوحيد دعوة مجربة الثمار والآثار .

وفي حديث بعثة معاذ إلى اليمن قال رسول الله ﷺ : « **فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله** » .

ونحن إذ نريد العمل لنجاة أنفسنا والفوز برضا ربنا والسعي لنصرة دينه وإعلاء كلمته في الأرض والرغبة في عودة الإسلام عزيزًا كما كان ، وعودة الخلافة على منهاج النبوة التي بشر بها النبي ﷺ لابد من السير على نفس طريقهم وسلوك نفس منهاجهم الذي أصله ونقطة البدء فيه : تحقيق التوحيد ، راجع مقدمة فضل الغني الحميد .

الذي جاء به النبي ﷺ ، فلو كانوا على جاهليتهم ، لقالوا : في سبيل الأرض أو الوطن أو في سبيل رايات الجاهلية أو غير ذلك ، ولكنهم قالوا : ﴿ نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، يريدون إعلاء كلمة الله .

وهكذا المسلمون في كل عصر لا تقوم لهم قائمة إلا بأن يجاهدوا لإعلاء كلمة الله تحت راية لا إله إلا الله.

ولنتأمل ما جري للمسلمين عبر تاريخهم ، كيف أن عدة آلاف فقط فتحوا الممالك الكبرى ، وانتصروا على الأمم العظمى ، مع أن لديها أعتى الأسلحة وأقواها ، إن بضعة آلاف ليس لهم من السلاح إلا ما غنموه من أعدائهم ولا يوجد من يعينهم بالمال أو بالعتاد ، ومع ذلك ينصرهم الله .

وانظر – على الجانب الأخر – كم كان عدد المسلمين في حرب ٦٧ التي مضى عليها الآن تسع وثلاثون سنة ، عندما سقط بيت المقدس كانت جيوش المسلمين في ذلك الوقت قد تجاوزت المليون من دول متعددة (ولكنهم لم يحققوا الإيمان) ، لذلك ففي أقل من يومين أو ثلاثة دخل اليهود

بيت المقدس وأخذوا القدس وفرضوا أمرهم عليها ـ والله إنه لحدث هائل في التاريخ أن يحدث كل هذا ـ وإن كانت البقية الباقية من هيبة المسلمين ، قد منعتهم ـ بحمد الله ـ من أن يفعلوا ما فعله الصليبيون حين دخلوا القدس منذ أكثر من تسعمائة سنة فقط ، منعوا الصلاة في المسجد الأقصى ، وجعلوه مزبلة ، ورفعوا الصليب على قبة الصخرة .

من ذلك تعلم أن أية راية غير راية ﴿ **نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ** ﴾ فهي راية ليس وراءها إلا الهزيمة والهلاك ، وفي الحقيقة كان للقوم دوافع أخرى تحركهم للقتال مثل تحرير الأبناء المأسورين ، وتحرير الأرض المغتصبة ، والرجوع إلى الديار التي دخلها الأعداء ، كل هذه عوامل مساعدة ، أما أن تكون هي الغاية فلا . قال رسول الله ﷺ : « **مَن قاتَلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا فهو في سبيل الله** »[1] .

فإن نبيهم يعلم أن الكلام سهل ، وأن العمل صعب ،

---

(١) متفق عليه .

وأن التزام الإنسان بما يطالب به في كلامه من أصعب ما يكون ، فهو يعلم الأمراض التي توجد في نفوس كثير من المتكلمين فحذرهم منها : ﴿ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ ۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ ﴾ فهل كان القتال غير مفروض عليهم في هذا الوقت ؟

كيف لم يكن مفروضا عليهم وهم في الحقيقة يدفعون عن أرضهم وبلادهم ، فهو قتال دفع ، وهو فرض عين ؟

لا شك أن هذا كان مفروضًا عليهم بحكم التوراة من زمن موسى عليه السلام ، ولم ينسخ ذلك ولكنه لم يكن مكتوبًا عليهم لعجزهم ، فإن الله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعها ، ولأنهم لم يأخذوا بعدُ في الأسباب المهيئة لوجوبه ، ذلك أنه لا يصير واجبا إلا إذا كان عندهم من العدة والاستطاعة ما يمكّنهم من الوقوف في وجه أعدائهم ، أما قبل ذلك فالأسباب هي الواجبة وليس القتال نفسه هو الواجب في حال العجز ، وهذه المسألة غاية في الأهمية ، إذ إن البعض يتصور أن الأوامر الشرعية الواجبة تجب مطلقًا دون النظر إلى القدرة والعجز ،

فيعرض نفسه لما لا يطيق من البلاء ، ويترتب على ذلك من الفتن والفساد ما لا يعلمه إلا الله ، أما إذا اكتملت أسباب القدرة صار الواجب متعينًا .

فنبيهم يخاف عليهم إن فرض عليهم القتال ـ أي تعيَّنَ بقدرتهم عليه ـ أن لا يقاتلوا ، فهذا مثل قوله ﷻ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء ٧٦-٧٧][1] .

---

(١) فيه إشارة إلى فضل هذه الأمة ، فإن القليل منها تولى حين فرض الجهاد كما نستشعره من كلمة : ﴿ فَرِيقٌ ﴾، بينما تولى أكثر بني إسرائيل حين فرض عليهم القتال ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ ا. هـ رسالة التفسير بالمأثور د/ محمود عبد المنعم . ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٠ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [سورة محمد : ٢٠-٢١] .

وقوله ﷻ : ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾ .

انظر إلى هذا الفهم العميق والمحدد ، لقد كرروا مرة ثانية أنهم إنما يجاهدون في سبيل الله ، ثم ذكروا الدوافع الإضافية لوجود الرغبة في القتال .

﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، إذن الغرض الأول هو إعلاء كلمة الله ، ثم ذكروا بعد ذلك ﴿ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَا ﴾ .

أُخرجوا من ديارهم وطُردوا منها فصاروا لاجئين ، وهذا يدل على أنهم لم يكونوا في الأرض التي يريدون أخذها ، إنما كانوا في برية أو في قرى بعيدة عن سلطان الكفرة ، ولعل هذا هو الذي هيأ لهم أن يكونوا دولة وإن كانت ضعيفة جدًا ، وإن كانوا قلة قليلة وإن لم يكن لديهم في ملكهم هذا مقومات كثيرة .

وإذا كان الإخراج من الديار مفهومًا ، فما معنى الإخراج

من الأبناء ؟ المعنى أنه فُرق بينهم وبين أبنائهم ، وأن الأبناء أخذوا أسرى عند الكفرة ، ومعلوم ما يكون في أخذ الذرية والنساء وما يكون من انتهاك الحرمات .

فحث بعضهم بعضًا على القتال بذكر الحرمات المنتهكة ، وهذا من الجهاد الواجب ، إذ تخليص أسرى المسلمين متعين على من قدر على ذلك ، ولا شك أن الحرمات المنتهكة والأرض المغتصبة والأسرى المظلومين يجب أن لا تنسى أبدًا ، وتخليصهم من الحق الواجب علينا نحوهم .

وأما من يتصور أن ينتهي الصراع بيننا وبين اليهود والنصارى وهم يحتلون أرضنا ويأسرون إخواننا فهذا لا يقع إلا ممن خان دينه وأمته .

بل الحقيقة أنهم لو لم يكونوا أخذوا منا شيئًا ولو لم يكونوا قد أسروا منا أحدًا وما ظلمونا قط لما انتهى الصراع ، لأن كفرهم بالله ﷻ هو السبب الأساس في قتالهم ، قال الله ﷻ : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال ٣٩] .

وقال رسول الله ﷺ : « **أغزُوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ قاتلوا مَن كفر بالله** »[1] .

هكذا كان رسول الله ﷺ يأمر قادة جيوشه بعد أن يوصيهم بتقوى الله ﷻ ، يقول لهم ولجنودهم : « **قاتلوا من كفر بالله** » .

وعلى ذلك فالكفر هو مقتضى القتال أصلا ، وإضافة إلى ذلك أنهم ظلمونا وأخذوا أرضنا وأسروا أبناءنا .

ولذلك فالعداوة بيننا وبينهم ليست فقط لأجل جزء من الأرض ولو ردوه لزالت العداوة ، ليس الأمر كذلك ، بل والله لو رجعت فلسطين كلها للمسلمين لما جاز لهم أن يتركوا قتالَ من أمر الله بقتالهم .

قال الله ﷻ : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ

---

(١) رواه مسلم (١٧٣١) .

صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

هذا شرع الله ﷻ ولا يجوز لأحد كائنًا من كان أن يقول : كان هذا فيما مضى ولا يصلح لهذا العصر ، بل الجزية هذه من شرع الله ﷻ إلى يوم القيامة ـ أعني إلى زمن عيسى عليه السلام ـ فقد قال النبي ﷺ : « **يُوشكُ أن يَنزلَ فيكمُ ابنُ مريمَ حكمًا مقسطًا ، يكسِرُ الصليبَ ، ويقتلُ الخنزيرَ ، ويضعُ الجزيةَ** »[1] .

يضعها : يعني لا يقبل إلا الإسلام ، فتكون الملة واحدة من أبَى الإسلام قُتل ، أما قبل نزول المسيح فالباب مفتوح لمن أَبى الإسلام أن يدفع الجزية ويلتزم أحكام الملة فيصير ذميا للمسلمين .

قال الله ﷻ: ﴿ **فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ تأمل هذه الآية العظيمة . فقد وقع ما كان يخشاه النبي ، فإن الأكثر تولى ، ولذلك فإن الاعتماد دائما ليس على الكثرة ، ولكن على طائفة قليلة من القليل.

---

(١) رواه احمد في مسنده (٧٤٧١) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٠٧٧) .

إن التغيير الذي حدث في هذه الأمة لم يكن على أيدي هؤلاء الذين يتكلمون ويرددون : نريد الجهاد ، نريد القتال في سبيل الله ، فإن أكثرهم تولى بمجرد أن فرض عليهم القتال .

(هكذا تبدأ مراحل التصفية والتهذيب في هذه الأمة ، وسوف تتوالى الابتلاءات لهؤلاء الذين استجابوا لأمر الله) .

ولنتأمل في قوله ﷻ :﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

لماذا تولوا ؟ لأن الله ﷻ خذلهم بسبب ظلم سبق ، فإن من عقوبة المعصيةِ المعصيةَ بعدها ، ومن عقوبتها الخذلان وعدم التوفيق لالتزام الإنسان ما أخذه على نفسه وما فرض الله ﷻ عليه .

فلنسأل أنفسنا لماذا يضعف المرء عما فرض الله عليه ؟

لماذا يتولى عما فرض الله عليه من طلب العلم أو الدعوة إلى الله أو العبادة الواجبة ؟

لماذا يُحرم التوفيق ؟ لماذا يخذل والعياذ بالله ؟

كل ذلك بسبب ظلمه لنفسه ، فإن الله ﷻ يضع الأشياء

في مواضعها ، وهو عليم بالظالمين ، نسأل الله ﷻ أن يعفو عنا وأن يغفر لنا .

فقد ثبط الله ﷻ المنافقين ، بما في قلوبهم من النفاق . قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ۝ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ [التوبة ٤٥ - ٤٦] .

ثبطهم الله ﷻ لأنهم في ريبهم يترددون ، ثبطهم بما في قلوبهم من الشك والنفاق والعياذ بالله ، ليس في قلوبهم التصديق الحقيقي ولا الانقياد الحقيقي .

وكذلك أركسهم الله بسبب أعمالهم . قال ﷻ : ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾ [النساء ٨٨] .

وقد يخذل الله ﷻ بعض المؤمنين في حربهم مع الشيطان ، بسبب ذنوبهم أيضا ، قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ﴾ [آل عمران : ١٥٥] .

فالله ﷻ خذل أكثر هذه الأمة من بني إسرائيل عن الالتزام بما كانوا يطالبون وينادون به ؛ لأنهم ظالمون ، فبِعِلْمِ الله ما في قلوبهم من الظلم جعلهم يتولون . فلنحذر على أنفسنا من ظلم النفس بالذنوب والمعاصي لأن هذا الظلم يؤدى إلى التولي ، ويؤدى إلى الحرمان من إرادة الخير ، فإن إرادة الخير هي في الأصل هبة من الله ﷻ ، فمن النعم أن يجد الإنسان في قلبه حب الخير من الحفاظ على الصلوات في جماعة ، أو المواظبة على طلب العلم ، وحفظ القرآن ، أو المشاركة في الدعوة إلى الله ﷻ أو الجهاد في سبيله ، كل هذا من توفيق الله ﷻ للعبد ، فهو إما أن يكون مراعيًا لتلك النعمة وإما أن تنتزع منه وتتحول النية بعد ذلك إلى شهوات الدنيا بل إلى المعاصي والمنكرات والعياذ بالله .

سبحان الله ! تأمل هذا التفاوت البعيد بين النيات ، وقد يسأل سائل : لماذا خلق الله في قلب هذا نية الخير مع أنه خلق في قلب غيره نية الشهوات والملذات أو المعاصي والمنكرات ؟

والجواب أن الله ﷻ لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس

أنفسهم يظلمون ، والله عليم بالظالمين ، فإنه ﷻ ما وضع إرادة الخير لدى إنسان إلا لأنه ﷻ عليم بالشاكرين .

قال الله ﷻ عن الكفار في ازدرائهم المؤمنين : ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٣] .

الله ﷻ وضع الإيمان عند من يعلم أنهم يقبلونه ويشكرون الله ﷻ على هذه المنة العظيمة . لذلك فإذا وجدت في قلبك حبًا لله ورسوله ﷺ وحبًا للطاعة فاغتنم هذه الفرص قبل أن تحرم منها ويجعل في قلبك إرادات أخرى منكرة تراها فيمن حولك ، فتجد مَن غايةُ أملِه المالُ أو الشهوات أو الشهرة أو الملك ، آمال كلها في النهاية إلى المقبرة والمزبلة كما قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ ، فقد رُوي أنه مرَّ براهب عنده مقبرة ومزبلة فقال : يا راهب عندك كنز الرجال وكنز الأموال وفيهما معتبر[1].

---

(١) السير (٨/ ٩ ، ٤) ، تفسير ابن كثير (١/ ٤٣٩) .

فأنت حين ترى قطعة قماش ملقاة في مزبلة تعلم أنها كانت في يوم من الأيام ثوبًا يتزين به صاحبه .

والرجال الذين نتكلم عنهم ماتوا وصاروا إلى المقابر وهكذا نحن نصير إليها ومَن بعدنا كذلك . سبحان الله إن في ذلك لأوضحَ العبرة وأبلغَ الموعظة.

نعود لننظر إلى الابتلاءات التي مر بها هؤلاء الذين لم يتولوا عن الجهاد .

قال الله ﷻ : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٤٧] .

حين أخبروا أن طالوت هو الملك ظهرت أمراض خطيرة كانت موجودة فيهم ، مع أنهم هم الذين استجابوا لأمر الله ﷻ ولم ينكثوا على أعقابهم كما نكث أكثر القوم .

يقولون : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ ، من أين يكون

له الملك علينا ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ ؟

إنه التنافس على الملك وهم بعد مستضعفون ، عجيب والله أن يتنازع أناسٌ الملكَ وهم مشردون خارج أوطانهم وبلادهم ، ولكنه مرض قديم في النفس ، وإبليس يوقده فيها .

جادلوا في أمر الله ﷻ فالنبي قال لهم :﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ ﴾ ، ولم يقل : أنا بعثتُ ، مع أنهم طلبوا منه ذلك فقالوا : ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا ﴾ ، ومع ذلك فإنه يؤكد أن الله هو الذي بعثه ، وكأنه كان يتوقع منهم هذا الرفض ، فهذه طبيعة بني إسرائيل : المجادلة والاعتراض على أمر الله وترك الاستسلام .

وانظر في قصة البقرة كيف سألوا موسى ﷺ أسئلة متعددة ولم يستجيبوا أول الأمر كما بيّن الله ربنا ﷻ، وهذا المرض ـ الجدال وترك الاستسلام ـ منتشر في كثير من الناس ، حتى بعد أن يتبين لهم الحق ويعلموا الدليل من الكتاب أو السنة ، و ترى من يزعم أنه يسأل عن الحكمة لماذا أحل الله كذا ؟! ولماذا حرم الله كذا ؟! .... تكون النتيجة تركَ أمر الله

هكذا ظهرت في بني إسرائيل أمراض عدة منها :

١ – التنافس على الملك وهو يتضمن تزكية النفس وعيب الآخرين ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ .

٢ – المجادلة في أمر الله وترك الاستسلام والانقياد .

٣ – استعمال الموازين الجاهلية وهو يتضمن إهمال العلم وتعظيم المال [1] ﴿ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ﴾ .

---

(١) حرص رسول الله ﷺ على علاج هذا المرض في أصحابه فكان يسألهم ليصحح لهم الموازين ، فكان يقول :

- « **ما تعدون الصرعة فيكم ؟** »

- « **أتدرون من المفلس؟** »

- مر رجل على النبي ﷺ فقال لرجلٍ عنده جالس : « **ما رأيك في هذا ؟** » **فقال** : رجل من أشرف الناس : هذا والله حرى إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع ، فسكت رسول الله ﷺ ثم مر رجل آخر فقال له رسول الله ﷺ : « **ما رأيك في هذا ؟» فقال** : يا رسول الله رجل من فقراء المسلمين هذا حرى إن خطب أن لا ينكح **وإن شفع أن** لا يشفع وإن قال أن لا يسمع لقوله ، فقال رسول الله ﷺ : « **هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا** » متفق عليه .

- **تعجبون من دقة ساق ابن مسعود ، لهي أثقل عند الله من جبل أحد .**

- **يؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة .**

٤ - الحسد ﴿ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ ﴾ .

عجيب والله أمر هؤلاء القوم ، ألم يطلبوا الجهاد في سبيل الله بألسنتهم منذ قليلَ ؟ فما بال المال الآن هو الذي يحركهم ، ما بال المال قد أعمى أعينهم حتى نسوا تمامًا المقاييس الصحيحة ؟! ، نسوا العلم ونسوا القوة والكفاءة التي تمكن الملِك من الجهاد في سبيل الله ﷻ.

هذه الأمراض قد تنتشر في الأمة التي تريد أن تنهض من كبوتها ولابد من الحذر منها ـ أعني إهمال العلم وتعظيم المال ـ ، فالعلم خير من المال كما قال علي بن أبي طالب ﷺ لكميل بن زياد « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، العلم يزكو على الإنفاق ، والمال تنقصه النفقة » .

وهكذا لم يلتفت بنو إسرائيل إلى أن طالوت عنده علم وعنده كفاءة وسلامة جسم .

فرد عليهم نبيهم : ﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾ ، هذا أول ما رد به عليهم : أن الله ﷻ هو الذي اختاره ، وذلك أن

منبع قولهم : ﴿ وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ هو الحسد .

فهذا النبي الكريم ﷺ يحاول علاج هذا المرض وهو الحسد الذي يدفع الناس إلى التنافس على الرياسة ، وهذا علم عظيم وتوفيق من الله ﷻ .

وعلاج هذا المرض يكون بشهود أن الله ﷻ هو الذي اصطفى واجتبى ، هو ﷻ الذي اختار وقسم ، هو ﷻ الذي مَنّ وأعطى.

إذا استشعر الإنسان هذا فلن يجد في نفسه حسدًا لأحد ، لأن الفضل ليس له ولكن الفضل كله لله ﷻ .

والله ﷻ ذكر علاج هذا المرض في سورة الزخرف ، فالحسد هو الذي جعل كبراء قريش وقادتها يكفرون بالرسول ﷺ ، ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] ، يعرفون أن هذا القرآن حق ولكنهم يقترحون أن ينزل على رجل عظيم عندهم بموازينهم الجاهلية الباطلة ، فذكر الله ﷻ العلاج الذي لو فتحوا له قلوبهم لشفاهم الله ﷻ به .

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف :٣٢] .

وهكذا كان منهج الأنبياء في علاج الحسد الذي هو سبب من أسباب الكفر والتكذيب ، فأقوام الرسل قالوا :﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾

[إبراهيم :١٠- ١١]

إنهم يحاولون معالجة المرض بالتذكير الدائم أن الله هو الذي منّ وتفضل .

شروط القيادة

قال الله ﷻ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ ، العلم من شروط الإمامة ، فلا يجوز أن يتولى جاهل بشرع الله أية إمامة للمسلمين : لا ولايةً عظمى ولا قضاء ولا فتوى ولا حسبة بل لابد من العلم في كل ذلك .

قال النبي ﷺ في أشراط الساعة : « **وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ الْبُكْمَ مُلُوكَ الأَرْضِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا** » [1] .

الصم البكم أي : لا يستجيبون لموعظة ولا يتكلمون بخير أبدًا فهذه آية من آيات الله ﷻ ، أنه إذا ظهر الترؤس بالجهل فإن هذا من علامات خراب العالم ، وانتهاء الدنيا ، وقيام الساعة ، نسأل الله العفو والعافية .

وقول الله ﷻ : ﴿ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ ﴾ [2] ،

---

(١) رواه مسلم (١٠) من حديث أبي هريرة .

(٢) فيه تنبيه على أن العلم هو مقياس التفاضل .

وقد ورد في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة والتابعين والعلماء الكثير والكثير في فضل العلم ، بل هو أكثر ما ورد في فضائله نصوص ، فهو إمام العمل ، =

بسطة أي : سعة في العلم والجسم ، فسلامة الحواس شرط في الإمامة العظمى عند جمهور أهل العلم ـ بل يكاد يكون إجماعًا ـ لأنه لا يستطيع أن يتولى الأمور وهو مثلًا أعمى يحتاج إلى من يوجهه ، فلابد أن يكون ذا علم وذا كفاية يكفي الناس ما

وأفضل من العبادة ، وأساس الدعوة ، وقرين الجهاد ، وهو أفضل نعمة ومفتاح التزكية ، والعلماء هم أشرف الناس ، وهم أولياء الأمور ولا تجوز مخالفتهم .

ونقتصر على ذكر بعض الأدلة على أن العلم هو مقياس التفاضل :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩]

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [البقرة : ٣١] .

﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٤]

وقال رسول الله ﷺ :

ـ « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة » .

ـ « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين » .

ـ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

ـ « فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم » .

فأي طائفة يكون التفاضل فيهم على أساس العلم فاعلم أن أمرهم إلى رشاد ، أما إذا كان التفاضل فيهم على أساس المال أو الشرف أو غير ذلك فاعلم أن أمرهم في ضلال .

يحتاجونه من أمر القتال والإمامة والولاية وغير ذلك .

قوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [١] ، يضع الأشياء في مواضعها ، وهذا أيضًا لعلاج الأمراض النفسية عند بني إسرائيل ، ولكنهم بالرغم من كل هذه الأدلة الشرعية والعقلية لم يستجيبوا لها ولم يقبلوا بها ، وبنو إسرائيل أساتذة في رفض الاستجابة إلا بالظواهر الحسية .

فقد طلب منهم سيدنا موسى عليه السلام ـ قبل ذلك ـ أن يمتثلوا أمر الله وأن يوفوا بعهدهم وأن يؤخذ عليهم الميثاق ، فلم يستجيبوا له إلا عندما رفع الله ﷻ جبل الطور فوق رؤوسهم ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ ﴾ أي مثل السحابة ، ﴿ وَظَنُّوٓاْ

(١) قال الرازي : فيه ثلاثة أقوال ، **القول الأول** : أنه تعالى واسع الفضل والرزق والتقدير : أنتم طعنتم في طالوت لكونه فقيرًا ، والله تعالى واسع الفضل والرحمة ، فإذا فوض الملك إليه فإن علم أن الملك لا يتمشى إلا بالمال فالله ﷻ يفتح عليه باب الرزق والسعة في المال .

القول الثاني : واسع بمعنى موسع أي يوسع على من يشاء من نعمه .

القول الثالث : واسع بمعنى ذو سعة ا . هـ بتصريف يسير .

أنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ﴾ [الأعراف ٧١] .

هنا فقط استجابوا وخروا ساجدين وهم ينظرون إلى الجبل بأحدى عينيهم فقال الله ﷻ لهم : ﴿ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ ﴾ [الأعراف ١٧١] .

ثم بعد أن أعطوا عهودهم ومواثيقهم قالوا لموسى ﷺ :

﴿ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة : ٢٤] ، نوعية عجيبة من البشر ، نسأل الله أن يعافينا من ذلك .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ تابوت أي : صندوق .

هذا التابوت كان فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وكان مسلوبًا منهم قد أخذه القوم الكافرون ، وذلك أن التبرك بآثار الأنبياء هو المشروع دون التبرك بآثار الصالحين – على الصحيح من أقوال أهل العلم .

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ما السكينة ؟ وما حقيقتها ؟

بعض أهل العلم الذين نقلوا عن الإسرائيليات يقولون : طائر له جناحان ورأس وغير ذلك من الأعاجيب ، ولكن الذي يظهر من اللغة العربية التي نزل بها القرآن : أنها ما تسكن به نفوسهم وتطمئن به قلوبهم ، فكانوا إذا رأوا التابوت حصلت لهم السكينة (١) ولكن ما حقيقتها ؟ نحن لا ندري ما هي بعينها ، فالله ﷻ أعلم .

وهذه آخر الحجج التي تركها النبي الكريم وهي بيان أن عدم الاستجابة بعد هذه الآية معناه عدم الإيمان ، وهذا أخطر ما يخافه المؤمن على نفسه ، وكيف يُتصور أن يجاهِد في سبيل الله مَن فقد الإيمان بالله ؟!

وكأن هذا الأمر كان إيقاظا للقلة من بني إسرائيل التي تريد الجهاد ، إيقاظًا لها من غفلة الاستمرار في الجدال والاعتراض وعدم التسليم ، مع أنهم هم الذين طلبوا الجهاد

---

(١) قال الرازى : كلمة « في » كما تكون للظرفية فقد تكون للسببية قال ﷺ « في النفس المؤمنة مائة من الإبل » ، وقال : « في خمس من الإبل شاة » أي بسببه ، فقوله فيه سكينة أي بسببه تحصل السكينة ا . هـ .

في سبيل الله ، ولنتأمل كيف يمكن أن تؤدي الأمراض القلبية بالفرد والأمة إلى ضياع الإيمان ، رغم أن بداية عملهم كان السعي إلى نصرة الدين ، وإعلاء كلمة الله ، فلابد أن نحذر على أنفسنا من هذه الأمراض ونتائجها ، ولا تخدعنا نفوسنا بأننا نريد نصرة الدين [1] ، وأننا قد أوذينا في سبيل الله وأخرجنا من ديارنا وأبنائنا فيكفينا هذا في تحقيق الإيمان ، لا ، بل قد يضيع الإيمان بالكلية بسبب الأمراض الإبليسية والعياذ بالله .

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ

---

(١) قال تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [القلم : ٤٤] كيف يأمن الإنسان على نفسه وقد قال رسول الله ﷺ : « الأعمال بالخواتيم » ؟!
فلابد من محاسبة النفس في كل كبيرة وصغيرة حتى لا يكون ممن قال الله فيهم : ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] وقال : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٧] ، ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٠] ، ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٤] .

غُرْفَةً بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾.

انظر إلى هذا التمحيص الجديد ، لقد تعرضوا إلى أنواع من الابتلاء سواء بالخير أو بالشر ، كما قال ﷻ : ﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

كانوا محرومين من شهواتهم لتسلط الأعداء عليهم ، وهم الآن في ابتلاء جديد وهو التعرض للشهوات .

فقد أصابهم العطش وأمامهم نهر جارٍ ، لكن قائدهم - الخبير بما يجب أن يكون عليه الجنود من التحكم في شهواتهم - أمرهم أن لا يشربوا منه .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ ، إما أن يكون ذلك بإيحاء من الله كما يظهر ، وإما أنه كان يعلم ذلك .

والملِك قد سمَّي وجود النهر ابتلاء ، يعني من البلاء للإنسان أن يجد رغباته وشهواته أمامه وهو ممنوع منها [١] .

---

(١) قال الله تعالي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [المائدة : ٩٤] ، ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ =

والدنيا مثل هذا النهر ، ونحن قد أصابنا العطش لشهواتها كما أصاب هؤلاء الجنود العطش للماء ، فإما أن يشرب الواحد منا ويكتنز أو يتحكم في شهواته ويأخذ غرفة واحدة أو يمتنع تماما فيصير زاهدًا فيها بالكلية ، والله المستعان .

فالذي يستجيب لشهواته ويتعلل بظروف الحياة وتكاليف العيش ووطأة المسؤوليات فأنى لمثل هذا أن يكمل الطريق [1] ؟!

لذلك فإن طالوت عليه السلام رد هؤلاء [2] الذين شربوا من

لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٣] .

(١) قال تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة : ٤٩] ، ﴿ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب : ١٤] .

(٢) وكذلك أمر الله رسوله ﷺ أن يرد من لا يصلح للقتال ولم تتربَّ نفسه وتزُكُ روحه ، قال تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة : ٨٣] ، وكذلك قال يوشع بن نون لبني إسرائيل : « لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبنى بها ولما يبن بها ، ولا أحد بنى بيوتًا لم يرفع سقوفها ، ولا =

النهر ، مع أنه ذاهب لمواجهه عدو كثيف هائل ، ولكن النصر لا يتنزل على الكثرة وإنما يتنزل على المؤمنين حتى وإن كانوا قلة .

يُقال إن بني إسرائيل كانوا ثمانين ألفا [١] ، فلما أتوا إلى النهر شرب أكثرهم ، ولم يعبر النهر إلا ثلاثمائة وبضعة عشر ، كما ثبت في صحيح البخاري عن حديث البراء ﷺ قال : « كنا نتحدث أن أصحاب بدر ثلاثمائة وبضعة عشر ، بعِدَّةِ أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر ، وما جاوز معه إلا مؤمن » [٢].

أحد اشترى غنمًا أو خلفات وهو ينتظر أولادها .... » ، وكذلك فعل القائد المسلم (ألب أرسلان) فقد كان جيشه عشرين ألفًا ، فلما سمع بجيش دقيانوس ملك الروم أنه على أقل تقدير ستمائة ألف قال (ألب أرسلان) لجنوده : « لا سلطان لكم اليوم » فرجع خمسة آلاف ، ثم باتوا فرجع من الليل ثلاثة آلاف ، ولم يبق معه سوي اثني عشر ألفًا ، فلبسوا جميعًا أكفانهم وتحنطوا وأقبلوا على الجهاد في سبيل الله ، فنصرهم الله ﷻ نصرًا عزيزًا مؤزرًا .

(١) ورد ذلك عن السدي وعكرمة ، وورد عن ابن عباس أنهم كانوا سبعين ألفًا وقال مقاتل : مائة ألف كما أفاده د/ محمود عبد المنعم في رسالته التفسير بالمأثور جمعًا وتحقيقًا ودراسة .

(٢) البخاري (رقم ٣٩٥٩) ، وانظر : فتح الباري (٧/ ٣٣٩) .

فلابد أن تكون الطائفة كلها أو عامتها مؤمنة هذا هو السبيل الوحيد للنصر .

وإلا فكيف ينتصر على عدوه الخارجي من لم ينتصر على عدوه الداخلي ـ أعني نفسه وشيطانه ـ ؟!

ولذلك فإن جهاد الأعداء فرع على جهاد النفس ، وإن كان الحديث : « رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » . حديثًا منكرًا سندًا ومتنًا ، فإن الرسول ﷺ قال عن الإسلام : « **وذروة سنامه : الجهاد في سبيل الله** » (١).

فقتال الأعداء في سبيل الله ﷻ هو أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله ﷻ والصلاة على وقتها (٢) لاشك في ذلك ، ولكن

---

(١) الترمذي ٢٦١٦ ، ابن ماجة ٣٩٧٣ ،أحمد ٢١٥١١ ، وصححه الألباني .

(٢) روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال : سئل رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : « الإيمان بالله » قال : ثم ماذا ؟ قال : « **الجهاد في سبيل الله** » قال : ثم ماذا ؟ قال : « **حج مبرور** » .وروى أيضًا عن أبي ذر قال : قلت يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال : « **الإيمان بالله والجهاد في سبيله** » . وروى أيضًا عن عبد الله ابن مسعود قال : سألت رسول الله ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « **الصلاة لوقتها** » قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « **بر الوالدين** » ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : « **الجهاد في سبيل** =

لابد أن يكون له أساس فلا يمكن أبدًا أن نبني على أمواج البحر ، بل إذا بنينا على أساسٍ ضعيف فإن البناء يصير هشًا يتصدع لأضعف صدمة ، فلا نتوقع أية ثمرة للجهاد إذا كانت قلوب المجاهدين غير عامرة بالإيمان.

ومن هنا يتضح مدى فقه هذا الملك ـ الذي آتاه الله بسطة في العلم ـ إنه لم يقل إن العصاة أفضل من الكفرة فلا مانع أن يكونوا معنا في المواجهة ـ كما يروج لذلك البعض ـ بل وزَنَ الأمور بموازينها الصحيحة [1] المستمدة من شرع الله ﷻ ، فإن

الله » فما تركت أستزيده إلا إرعاء عليه . وانظر باب بيان كون الإيمان بالله أفضل الأعمال من شرح صحيح مسلم .

(١) يقول الشيخ سعيد عبد العظيم ـ حفظه الله ـ في كتابه تحصيل الزاد :

« ومن عجيب الأمر أن البعض يسفه طلب العلم ويحتقر أهله ـ في الوقت الذي يغير فيه أصناف الأطعمة والألبسة ـ اكتفاء بقصة سحرة فرعون وكيف أنهم ثبتوا في مواجهته على الرغم من إيمانهم عمره لحظات ، أو يستدلون بقصة الرجل الذي نطق الشهادة ثم دخل يقاتل فقتل فقال النبي ﷺ : « **عمل قليلاً وأجر كثيرًا** » .

فنرى أن هذا من الحق الذي أريد به باطل ، ولا تعارض بين النصوص ومن تشابه موقفه مع موقف سحرة فرعون أو هذا الرجل فليصنع صنيعه .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ**

=

الله ﷻ قد يخذل المؤمنين لكثرة العصاة فيهم ، « فإذا قال قائل : فما العمل إذا دخل الكفار علينا » ؟

نقول : إذا كان أكثر الجيش فجرة ، وزمام الأمور بيد المنافقين فتأكد تمامًا أن الهزيمة حاصلة ، فإياك أن تدخل في معركة من هذا النوع .

ومن عجيب ما يذكر ما ورد عن بعض السلف : أن من شرب من النهر لم يطفأ ظمؤه ، وأما من اغترف غرفة واحدة فقد ارتوى وكَفَتْه هذه الغرفة [1] وهذه الدنيا من أخذ منها أكثر من غرفة فإنه والله لن يشبع أبدًا ، بل يصبح وكأنه

يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] ثم ورد بعدها الصفات الإيمانية التي ينبغي علينا أن نحرص على إيجادها في القاعدة الجهادية ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : ١١٢] ا . هـ

(١) ورد ذلك بأسانيد حسنة عن قتادة والسدي ،وبأسانيد فيها ضعف عن ابن عباس ووهب ابن منبّة كما أفاده د/ محمود عبد المنعم في رسالته التفسير بالمأثور جمعًا ، تحقيقًا ودراسة من الآية ٢٤٣ إلى ٢٦٢ البقرة .

يشرب من البحر لا يزداد إلا عطشًا، كما قال رسول الله ﷺ : « **لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إِلاَّ التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ** » [١] .

ولذلك كان من دعاء النبي ﷺ : « **اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا** » [٢] .

فإذا أخذ المرء من الدنيا قُوتَه فقط فإنه يكون غنيًا حقا ، فقد قال رسول الله ﷺ : « **مَنْ كَانَتِ الآخِرةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ** » [٣] .

من طمع في شيء من الدنيا فإنه لن يشبع أبدا ، أخبرني أحد الأخوة أن أقصى ما كان يحلم به من الدنيا أن يمتلك

---

(١) رواه البخاري (٦٤٣٩) واللفظ له ، ومسلم (١٠٤٨) .

(٢) البخاري (٦٤٦٠) ، ومسلم (١٠٥٥) واللفظ له .

(٣) رواه الترمذي (٢٦٥٣) عن أنس ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٥١٠) .

خمسة آلاف ، ومرت الأيام وفتح الله عليه الرزق وأصبح يمتلك خمسين ألفًا ، ولكنه أخذ يقارن نفسه بأصحاب الملايين فيرى نفسه لا يملك شيئًا ، ويطلب الزيادة حتى يصير مثلهم ، نسأل الله العفو والعافية.

قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ ، وصفهم الله ﷻ بالإيمان لأن الإيمان قول وعمل ، فمن شرب ليس بكافر ولكنه ناقص الإيمان فلا يصلح للمشاركة في الجهاد [1] .

﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ ، ما أصعبَ الموقف ، إنهم قلة قليلة أمام عدو هائل ، وهناك لا يثبت إلا

---

(١) وإن شارك فلا يكون مؤهلاً للنصر والتمكين ، فإن وعد الله ﷻ للمؤمنين الصادقين بأن ينصرهم ويمكن لهم دينهم واضح جدًا في نصوص القرآن والسنة وهو واضح أيضًا عند أعدائنا ، كما روى ابن كثير في تفسيره وعزاه للحاكم والبيهقي في الدلائل أن هشام بن العاص ﷺ لما دخل على جبلة بن الأيهم الغساني ودعاه إلى الإسلام وأخبره أن وعد الله ﷻ بالنصر لهذه الأمة حتى على ملك هرقل نفسه ، فقال له جبلة : « لستم بهم بل هم قوم يصومون النهار ويقومون بالليل فكيف صومكم ؟ » قال هشام : فأخبرناه فملئ وجهه سوادًا .

من كان الإيمان في قلبه كالجبال الرواسي ، ولذلك فإن بعض هؤلاء المؤمنين بالرغم من كونهم ثبتوا أمام كل هذه الابتلاءات ـ فهم لم ينشغلوا بدنياهم عن واقع أمتهم وطلبوا الجهاد ، ثم لم ينكثوا عهدهم حين فرض عليهم الجهاد ، ثم لم يرفضوا حكم الله بأن يكون طالوت هو الملك ، ثم لم يشربوا من النهر امتثالا لأمر الله ـ وبعد هذا كله ما زال منهم من يقيس بمقاييس مادية ﴿ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ﴾ .

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، هؤلاء هم القليل من القليل من القليل ، أفذاذ الأمة .

ثبت الله ﷻ بهم الجيش وأنزل عليهم نصره . ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾ أي يوقنون بلقاء الله [1] ،

(١) الظن يستعمل بمعنى اليقين كما في قوله تعالى : ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا ﴾ [الكهف : ٥٣]

قال الضحاك : كل ظن في القرآن من المؤمن فهو يقين ومن الكافر فهو شك .

=

قال مجاهد : ظن الآخرة يقين وظن الدنيا شك .

فيحمل الظن في هذه الآية ، وفي قوله : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ٤٥ -٤٦] ، ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٠] على اليقين .

وتكون الفائدة ـ والله أعلم ـ إضافة إلى اليقين الجازم : التذكر الدائم كما يشعر قول الله تعالى في الحديث القدسي : « **أظننت أنك ملاقيّ** » قال : « لا » قال : « فاليوم أنساك كما نسيتني » فجعل مقابل الظن الذي هو بمعنى اليقين جعل مقابله النسيان ، فيكون معنى الظن كثرة استحضار هذا المعنى ، كما ورد عن سعيد بن جبير في هذه الآية ، قال الذين شروا أنفسهم لله ووطنوها على الموت .

وقد يحمل على معناه الأصلي في هذه الآيات ويكون التقدير « الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم » أي ثواب ربهم ويكون الدافع لهم إلى العمل عدم الجزم بحصول الثواب ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [التوبة : ٦٠-٦١] فخوفهم أن لا يتقبل منهم جعلهم يسارعون فبي الخيرات .

أو يكون الدافع الخوف من عدم تقبل التوبة والمؤاخذة بالسيئات كما في قوله : ﴿ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ قيل في معناها : إني ظننت أن يأخذني الله بسيئاتي ، وقد قال المؤمنون وهم في الجنة : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الطور ٢٦-٢٧] فيكون الحافز إلى العمل هو الخوف والرجاء مجتمعين ، والله ﷻ قد قال عن آل زكريا : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾ [الطور : ٩٠] ، وهذا نستشعره من قول الحسن في آية الحاقة : « إن المؤمن أحسن الظن بربه فأحسن =

فإن الإيمان بالله واليوم الآخر هو حجر الزاوية في بناء الشخصية المسلمة المتكاملة .

انظر فيم كانوا يفكرون ؟ إن نهاية آمالهم في الدنيا أن يلقوا ربهم ﷻ وهو عنهم راضٍ ، إنهم يعدون أنفسهم أمام فرصة سانحة لإرضاء الله ﷻ .

حيث وجدوا اليأس والضعف يخيم على أذهان بعض أفراد الجيش ، فقاموا صائحين مذكرين : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

ما شاء الله لا قوة إلا بالله ، ما أعظم هذه النفوس وما أعلى درجاتها وقد امتلأت من محبة الله ﷻ واستحضار معيّته ، فأما محبة الله فدفعتهم للتضحية بكل شيء لنيل رضا الله ﷻ[1] ، وأما

العمل للآخرة وإن الكافر أساء الظن بربه فأساء العمل للآخرة » .

راجع تفسير ابن كثير والرازي لآيتي البقرة وتفسير فتح القدير لآية الحاقة .

(١) وقد فطن إلى ذلك سلف هذه الأمة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ فكانوا إذا تأخر عليهم النصر يردون التأخير إلى حب الدنيا والتعلق بها ثم يبادرون بالتوبة والرجوع الى الله فينزل إليهم نصره ، والقصة التالية تصوير بديع لما فطن إليه هؤلاء : لما أبطأ =

استحضار معيته ﷻ فجعلتهم لا يعبؤون بأعدائهم رغم كثرتهم ، يقولون : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ .

و﴿ كَم ﴾ تستعمل للتكثير ، وهذا هو الأصل عند

فتح مصر على عمرو بن العاص ﷺ كتب إلى عمر يستمده فأمده بأربعة آلاف ، على كل ألف رجل منهم رجل عنهم مقام ألف : الزبير بن العوام ، والمقداد بن عمرو ، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلد واعلم أن معك اثني عشر ألفًا ، ولا تغلب اثنا عشر ألفًا عن قلة .

ولما وصل هذا المدد وتأخر الفتح على عمر كتب إلى عمرو : « أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر ، تقاتلونهم منذ سنين ، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله ﷻ لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر واعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف ، إلا أن يكون غيرّهم ما غيرّ غيرهم ، فإن أتاك كتابي فاخطب الناس ، وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس ، ومر الناس جميعًا أن يكون لهم صدمة كصدمة رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة : فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ، ووقت الإجابة ، وليعج الناس إلى الله ويسألوه النصر على عدوهم .... »

انظر كتاب آفات على الطريق « ط٢ ص ٧١ » وقد ذكر المؤلف جزاه الله خيرًا كثيرًا من الأمراض مثل : القعود ، المراء والجدال ، الكبر والغرور ، الحسد ، التطلع للريادة والصدارة ، وكل هذه الأمراض قد ظهرت في بني إسرائيل .

المؤمنين : أن القليل - لو كانوا مؤمنين - يغلبون الكثير مهما كانت قوتهم [1] .

والصحابة رضي الله عنهم كانوا هم القليل في كل المعارك ومع ذلك فقد نصرهم الله عز وجل ، ولم تكن الكثرة عندهم ميزانًا أبدًا .

وقولهم : ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، دليل على استحضارهم أن الأمور تنزل من عند الله عز وجل ، فالأمر ليس من الأرض وإنما هو من السماء .

﴿ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ ، استحضار المعية إنما يكون لمن سَمَتْ نفسُه وارتفعت روحه ، فيرى الدنيا صغيرة ويرى الأعداء لا يساوون شيئًا .

وهؤلاء هم الذين ثّبتوا الباقين ، سبحان الله بقلّة من الثلاثمائة وبضعة عشر يظنون أنهم ملاقو ربهم ثبّت الله بقية

---

(١) قال تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٢ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ [آل عمران : ١٢-١٣] .

المؤمنين ثم نصرهم .

فالله ﷻ ينصر دينه بقليل من القليل من القليل ، فاللهم انصر بنا دينك يا رب العالمين .

قال الله ﷻ : ﴿ **وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** ﴾[1] ، أفرغ : أي صب ، فإنهم لم يقولوا : أنزل ، أو اجعل ، وإنما قالوا : أفرغ أي أعطنا صبرا كثيرًا غامرًا .

ومع أنهم هم الذين يصبرون إلا أنهم يقولون : ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ﴾ ، وهم الذين يَثْبتون ويقولون : ﴿ **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** ﴾ .

وذلك أن العبد فاعل منفعل ، فشهود القضاء والقدر ، وشهود فعل الله ﷻ في الناس ، والاعتراف له ﷻ بالفضل في الصبر والثبات ركيزة أخرى في بناء الشخصية المسلمة المتكاملة ، وعدم شهود العمل بل شهود الفضل لله يمنع العُجْب

(١) قال القرطبى : برزوا صاروا في البراز وهو الأفيح من الأرض ، المتسع .

والكِبْر والغرور ، ﴿ وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ، طلبوا النصر من الله ﷻ[1] .

وتأمل في قولهم : ﴿ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ ، فإن العبد إذا نظر إلى أعدائه وكثرتهم ربما يتصاغر وينكمش ، ولكن حين يستشعر أنهم كفرة فإنه ينشط لحربهم حميةً لدينه .

فلو رفعنا راية غير راية الإسلام وقلنا : سوف نحارب الصهاينة مثلاً أو الغرب أو غير ذلك فلن نجد غير الضعف والوهن ، أما لو قلنا : سوف نحارب الكفرة فهذا هو الوصف المؤثر في نفوس المؤمنين ، يستجلبون به نصر الله ، ويتوسلون إليه في دعائهم بأن هؤلاء كفرة يصدون عن سبيله

---

(١) قال القرطبي : وهذا كقوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٤٦-١٤٨] وكان رسول الله ﷺ إذا لقي العدو يقول في القتال : « **اللهم بك أصول وأجول** » وكان ﷺ يقول إذا لقي العدو : « **اللهم إن أعوذ بك من شرورهم وأجعلك في نحورهم** » ودعا يوم بدر حتى سقط رداؤه عن منكبيه ليستنجز إليه وعده ا . هـ .

ويستحقون الهزيمة ، فانصرنا عليهم يا قوي يا عزيز .

قال الله ﷻ : ﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ والفاء تدل على الترتيب، والتعقيب ، فهي تدل على السرعة ، وأن المعركة لم تأخذ وقتًا طويلاً .

﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ ، داود ﷺ كان شابًا صغيرًا في جيش طالوت ، لكنه أعد العدة وأحسن الرماية فوفقه الله ﷻ لقتل جالوت .

يروى أن جالوت لم يكن يظهر منه إلا الحدق ، فرماه داود في ما بين عينيه فوقعت في حدقته فمات .

فوقعت الهزيمة في قلوب الكفرة جميعًا فهزموا بإذن الله ﷻ ، أي أن النصر ليس بالكثرة .

﴿ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ﴾ رُوي أن طالوت زوّجه ابنتَه وأعطاه الملكَ مِن بعده ، وعلمه الله مما يشاء وجعله نبيًا ملكًا وعلمه الزبور .

سنة المدافعة

قوله ﷻ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ، سنة المدافعة من السنن العظيمة النفع للمؤمنين ، وبدونها تفسد الأرض[1] .

---

(١) يقول الشيخ سعد عبد العظيم ـ حفظه الله ـ تحت عنوان سنة التدافع من كتاب تحصيل الزاد : « وهذه السنة من أهم السنن الربانية يقول تعالى : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ [البقرة : ٢٥١] ، ويقول : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤٠-٤١] وأعظم معروف هو إخلاص العبودية لله جل وعلا ، وأول منكر هو عبادة غير الله من الطواغيت والأهواء والشهوات والإعراض عن شريعة الله .

فإذا ثبت أصحاب الحق وصبروا وصابروا تحقق لهم وعد الله بهزيمة الباطل ، وهذا الصراع لا تنهيه معركة واحدة ولا حتى مئات المعارك إذ إنه يتخذ **عدة أشكال** ، ويمتد في مساحات طويلة تجعل الإنسان يقضي حياته كلها في هذا الصراع ، وقد يهدأ في بعض الجوانب ويشتد في جوانب أخرى ، واستمراره يأتي نتيجة **كثرة الأعداء** في الداخل والخارج ، من النفس والأقارب والأموال والأزواج ومن الشيطان وجنوده ومن الكفار على اختلاف ألوانهم وأشكالهم يهودًا كانوا أو نصارى أو ملاحدة . وقد وهب الإنسان من القدرات والقوى ما يستطيع به مع توفيق الله وهدايته من السيطرة

=

والانتصار .
وهذا الصراع بين الحق والباطل بدأ بين آدم وإبليس ، ثم بين بني آدم وإبليس وبنيه ، والشيطان في حربه وصراعه لبني البشر لا ينام ، كما قال الحسن حين سئل : أينام الشيطان ؟ قال : لو نام لاسترحنا ، بل وكذلك أولياؤه لا ينامون فهم يعملون ليل نهار من أجل إضعاف هذه الأمة وإماتتها ، ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف : ٨] وقد شنوا على هذه الأمة حربًا لا هوادة فيها ، واستخدموا في هذه الحرب كل صور الأسلحة سواء أكانت عسكرية أم سياسية أم اقتصادية أم فكرية ، وكان ما يسمى بالغزو الفكرى من أعنف السهام التي وجهت لهذه الأمة ، وبمقتضى ذلك ركزوا على كل القطاعات من رجال ونساء وكبار وصغار ، واستخدموا كل الوسائل لإماتة روح الجهاد في نفوس هذه الأمة من إذاعة وتليفزيون ومجلات وجرائد ، بل ولم تسلم مناهج التعليم في مختلف المراحل من هذا الدس ، وحشدوا من أجل ذلك جيوشًا جرارة من الساسة والزعماء والمفكرين والأدباء ، وظهرت من أجل هذا الغرض دعوات كثيرة مثل : القومية والوطنية والدعوة إلى الإنسانية وزمالة الأديان والدعوة إلى السلام العالمي والتعايش السلمي ، لينضاف هذا الركام الخبيث إلى ما روجت له الفرق الضالة قديمًا كالمرجئة والصوفية والشيعة والإمامية الإثنا عشرية والجبرية والجهمية ، وما أذاعته الفرق الضالة حديثًا كالقاديانية والبهائية من افتراء على الإسلام وعلى عقيدة الجهاد . ومن المعلوم أن عقد الإخاء وثيق بين طرق الضلالة والانحراف ، واستمع إلى ما يقوله كاسترو (رئيس كوبا) للسفير الإسرائيلي في بلاده : « على إسرائيل ألا تترك الحركة الفدائية تتخذ طابعًا إسلاميًا دينيًا حتى لا تجعل من حركتهم شعلة من نار الحماس الديني مما يجعل من المستحيل على إسرائيل أن تصون كيانها ، لأن الفداء إذا تملكته عقيدة دينية =

فالله ﷻ جعل التدافع بين المؤمنين والكافرين ، لأجل أن يقوى إيمان المؤمنين بربهم سبحانه ، ويزداد توكلهم عليه ، ولجوؤهم إليه ، وطلب الثبات منه ، والصبر على الأذى في سبيله ، وغير ذلك من العبادات ، فالشعور بالمواجهة والصراع يقوّي الإيمان ، كالرجل الذي تعوّد على حمل الأثقال تجد يده قوية متينة ، أما هذا الخامل فتجد يده ضعيفة واهية .

وبخاصة في المجتمعات الإسلامية تلاشت أمامه كل العقائد الأخرى بما فيها الماركسية » .

فعلينا أن ندرك حجم هذه الحرب ، وأن يعد المسلمين للأمر عدته دفاعًا عن دينهم قبل أن يجُهز الأعداء على البقية الباقية منه ، وأن يتمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ فبهما يعتصمون من الزلل ، وبهما يفلقون هام الكفر وأهله ، كما فعل الرعيل الأول - رضي الله عنهم أجمعين - ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ** ﴾ [محمد : ٧-٨] وفي الحديث : « الجهاد ماض في أمتي لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل حتى يقاتل آخر رجل من أمتي المسيح الدجال » ضعيف السند وله شواهد كقوله : « الجهاد ماض مع البر وفاجر » ومن رواية مكحول عن أبي هريرة ولم يسمع منه ، وفي الحديث الأخر : « **الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة الأجر والغنيمة** » [رواه البخاري ومسلم] وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : « **لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى تقوم الساعة** » ا . هـ بتصرف يسير .

هذا ما يحصل في البلاد التي تنتشر فيها الرفاهية تجد الإيمان ضعيفًا إلا عند من رحم الله ﷻ .

فلا تحزن أيها المؤمن إذا وجدت من أعداء الله صدًا عن سبيله ، وإيذاءً لأوليائه ، فإن هذا من أسباب تمكين الإيمان في القلوب وبذلك يمكن الله ﷻ لهم في الأرض ، وكل هذا من فضل الله ﷻ ، لذلك قال بعد ذلك : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ نعم والله ، هذه القصة موجودة عند أهل الكتاب ولكن هل فيها كل هذه المعاني والعبر التي في القرآن ؟! إن هذا لمن الأدلة على صدق النبي ﷺ ، ولذلك قال الله ﷻ : ﴿ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ .

نسأل الله أن يرزقنا اتباع النبي محمد ﷺ ، وأن يجعلنا من عباده المؤمنين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قصة آدم عليه السلام

كتبه

د. ياسر برهامي

قِصةُ أصحابِ الأخدُود

كتبه

د. ياسِر بُرهامي

قصة مؤمن آل ياسين

كتبه

د/ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولسائر المسلمين

قصة أصحاب الكهف

كتبه

د. ياسر برهامي